المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب

الحسين اسكان

كلية الآداب، بنمسيك

مقدمة :

لا تحدث المجاعات والأوبئة دائما بسبب الآفات السماوية وحدها، بل قد يكون دور الإنسان أحيانا كبيرا في تفشيها وتفاقمها، إن لم يكن هو نفسه سببا مباشرا لها في بعض الحالات، خاصة أثناء الحروب والفتن واضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية. وتسعى هذه المداخلة إلى إبراز هذا الدور الأرضي المتمثل في الظروف البشرية من خلال تفاعلها مع الظروف المناخية المتزامنة معها خلال العصر الوسيط، وذلك بالتركيز على النقط التالية :

1. التوزيع الزمني للمجاعات والأوبئة، ومعدل وتيرة تكرارها خلال العصر الوسيط.
2. دور التخزين في مواجهة الآفات السماوية والتلطيف من حدتها.
3. تفاقم آثار المجاعات والأوبئة خلال فترات الفتن والحروب.

وقبل تناول هذه النقط لابد من إبداء بعض الملاحظات حول المصادر التاريخية عن الموضوع.

ملاحظة عن المصادر : إن معرفتنا بالمجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط من خلال معلومات المصادر التاريخية المتوفرة حاليا محدودة جدا من حيث الكم والكيف، إذ لا تغطي الرقعة الجغرافية للمغرب كاملة، وبالتالي يصعب من خلالها معرفة مدى امتدادها الجغرافي والتمييز فيها

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، ص. 133-151.

بين المجاعات المحلية والإقليمية وبين المجاعات العامة[1]. وأغلب ما جاء من معلومات في المصادر الأساسية عن المجاعات الكبرى يخص الشمال المغربي أو إقليم فاس ونواحيها[2]، وهو الإقليم الذي يتأثر في الحقيقة بالجفاف أكثر من غيره من المناطق الأخرى بالغرب الإسلامي حسب ابن خلدون "إذا نزلت بهم السنون (الجفاف) والمجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس...لا مثل أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخيل...ولا مثل أهل إفريقية... وأهل الأندلس، فإن هؤلاء لا تنال منهم السنون والمجاعات ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع"[3].

وحتى في هذا النطاق المكاني الضيق لا تتهم المصادر والحوليات الإخبارية إلا بما يمس المخزن ورجاله، فالأسعار التي تقدمها المصادر تتعلق بأسعار أسواق التحالف القبلي الحاكم سواء في حله بدار الملك أو في ترحاله أثناء الحركات[4]، وبالتالي لا يظهر أثر الكوارث أو القحط على الرعية إلا نادرا.

ومن الناحية الزمنية لا تغطي المعلومات المتاحة عن هذا الإقليم سوى القرنين 3هـ و4 هـ، والقرن 7 وبداية 8هـ، ولا شيء تقريبا عن القرنين5 و6هـ لأن فاس لم تكن دار ملك لدولتي المرابطين والموحدين في هذين القرنيين، وبالتالي تتعذر معرفة معدل تعاقب ظهور الجفاف والأوبئة بإقليم فاس خلال هذه المرحلة.

وحتى المجاعات المذكورة في المصادر لا تسمح المعلومات المتوفرة عنها بمعرفة حجمها ونوعيتها، إذ لا تذكر المصادر إلا

[1] رغم أن بعض المصادر ككتب التراجم والمناقب تذكر المجاعات المحلية كالتشوف للتادلي مثلا لكنها لا تذكر تواريخ حدوثها إلا نادرا. ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1، 1984، ص. 253، 246، 235، 217، 203، 183، 180، 153، 142، 140، 138، 126، 124، 984، 255، 334، 333، 298، 293، 263، 259

[2] أهمها جاء في روض القرطاس لأبي زرع الفاسي ومن نقل عنه كالناصري في الاستقصا.

[3] ابن خلدون عبد الرحمان الحضرمي، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، استعملنا المقدمة منه من طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، ص.154.

[4] انظر مثلا عن تتبع تقلبات الأسعار في حركة يوسف بن عبد المومن إلى الأندلس سنة566 هـ، ابن صاحب الصلاة عبد الملك، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،لبنان، ط3، سنة1987، ص. 352-353، 416،412-422.

المجاعات غير العادية "الوباء العظيم"، أو الغلاء الشديد، أما المجاعات المتوسطة والصغرى فلا تهتم بها، والذي سيسمح بتجاوز هذه الثغرات العديدة هو التقويم الشجري Dendrochronologie. فكيف كان معدل تكرار المجاعات والأوبئة خلال العصر الوسيط في هذا الإقليم ؟ وما هو دور العامل البشري في ذلك ؟

1- التوزيع الزمني للمجاعات والأوبئة :

وضع مجموعة من الباحثين في الدراسات الأخيرة عن العصر الوسيط جداول للمجاعات والأوبئة[5]، ولكن أغلبها غير كامل وغير دقيق (مثلا اعتبار ما حدث لجيش الناصر سنة 607 هـ بالقصر الكبير من سوء التموين مجاعة حدثت في هذه السنة)، منها الجدول الأولي الذي وضعه الأستاذ البزاز، واستخرج من خلال تحليله معدل تكرار المجاعات بالمغرب من منتصف القرن 9 إلى نهاية القرن 15م[6]، ولاحظ أن المغرب عرف خلال هذه الفترة 20 مجاعة على الأقل، أي بمعدل مجاعة لكل 28 سنة، أو 3 إلى 4 مجاعات في كل قرن، ولاحظ أن القرن 7هـ/13م استأثر بحصة الأسد، إذ سجلت فيه سبع مجاعات، تميزت بامتدادها الزماني وتقاربها، وحدث أغلبها عندما كانت الدولة الموحدية في طورها النهائي. أما المدة الفاصلة بين المجاعات فتتروح بين حدود دنيا من 3 إلى 18 سنة، وحدود متوسطة من 25 سنة إلى 37 سنة، وحدود قصوى من 52 إلى 82 سنة[7]، غير أنه لم يعط تفسيرا لهذه الاختلافات. والفترات التي يكثر فيها عدد المجاعات الطويلة الأمد والمتقاربة جدا قد تستغرق نصف قرن أحيانا، هي الفترات الانتقالية من دولة لأخرى لدرجة اعتبرتها بعض المصادر مجاعة واحدة كما سنرى.

وتصدق نفس الملاحظة على الأوبئة، إذ يخبرنا الحسن الوزان عن وجود ثلاث معدلات لظهورها شمال الواحات الصحراوية بقوله

[5] منها إلى سبيل المثال، الهلالي محمد ياسر : مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنيين الثامن التاسع هـ/14-15م رسالة دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب بالرباط، السنة الجامعية، 1996-1997 ص381-393، بولقطيب الحسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، 2002.

[6] البزاز محمد الأمين :"حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد18، ص. 96.

[7] نفسه، ص. 94.

"يظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة أو خمس وعشرون سنة"[8]. فما سر هذه الاختلافات في وتيرة تكرار المجاعات والأوبئة ؟ ولماذا استأثر القرن السابع الهجري بالنصيب الأوفر منها ؟

السبب في ذلك هو العامل البشري المرتبط بالتنظيم الاجتماعي والسياسي القائم. فخلال فترات الاستقرار السياسي يتمكن السكان من التغلب على الآفات السماوية ومن تلطيف حدتها وتقليص وتيرة تكرارها، بعدة طرق منها التخزين، في حين يفشلون في ذلك أثناء فترات الاضطراب السياسي خاصة في الفترات الانتقالية، مثل الفترة الانتقالية بين المرابطين وبني يفرن، وبين المرابطين والموحدين، وبين هؤلاء والمرينيين.

أ- دور التخزين في مواجهة الآفات السماوية والتلطيف من حدتها :

يستنج ضمنيا من المصادر التاريخية أن وتيرة الآفات السماوية من قحط وجراد ورياح كانت أكبر بكثير مما ذكره المؤرخون ومن المعدلات المشار إليها أعلاه، فالجفاف مثلا كان ظاهرة عادية ومألوفة بدليل تكرار صلاة الاستسقاء والتي كان يشارك فيها أغلب الأولياء خلال العصر الوسيط[9]، كما كانت أصول النبات التي تؤكل في أيام المجاعة معروفة ومألوفة لدى الفلاحين[10]، وأحسن مثال حول سكوت المصادر التاريخية عن تكرار الجفاف والمجاعات هو عهد أبي الحسن المريني (ت 749هـ) الذي لم تخبرنا المصادر المهتمة بالموضوع بحدوث أية مجاعة فيه، غير أن ابن مرزوق يخبرنا بتكرارها عدة مرات، "فكم من سنة مسبغة عال فيها إمامنا (ض) عنه محاويج أهل بلاد المغرب عموما، يخرج زرعه المختزن به أو المحاويج عموما في كلية بطول الجدب"[11]. لكن في مقابل ذلك لم تغفل تلك المصادر بعض المجاعات الشديدة التي وشمت الذاكرة الجماعية زمنا

---

[8] الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980، ج1، ص. 68.

[9] التادلي، التشوف، م.س، ص. 89، 138،124، 217، 218، 466-467.

[10] ذكر الجراد عدة مرات منها في أغمات، التادلي، التشوف...م.س، .ص. 253.

[11] ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيوس باغيرا، ط. الجزائر1981. ص 191.

طويلا إذ كان المعاصرون يؤرخون ببعض سنوات المجاعة، منها "سنة أوقية بدرهم" لمجاعة حدثت بفاس سنة 454هـ خلال صراع المرابطين والزناتيين[12]، ومنها سنة وقليل[13]. ومنها عام سبعة بسبتة أي 637هـ[14]. والسبب في إغفال المصادر التاريخية لأغلب المجاعات والأوبئة وتكرارها هو أن تأثيرها على مختلف شرائح المجتمع كان محدودا ولم يكن يصل إلى رجال المخزن بالشمال المغربي كما تقدم. ومن حسن الحظ أنه أمكن تجاوز هذه الثغرات بالتقويم الشجري Dendrochronologie والتعرف على سنوات الجفاف التي أغفلت المصادر ذكرها[15].

وتصدق الملاحظة نفسها على آفة الجراد التي لا تشير مصادرنا التاريخية إلى سنوات قدومه إلا نادرا، غير أنه يمكن الاستنتاج ضمنيا أن اجتياحه للمغرب كان مألوفا لدى المغاربة بدليل تأصل عادة أكل الجراد لدى المصامدة مقليا ومملحا، إذ كان يباع منه بمراكش في النصف الأول من القرن 6هـ كل يوم كميات كبيرة يوميا تصل أحيانا إلى 30 حملا في المعدل (أي 150×30=4500 كلغ)[16]. كما كانت طرق طبخه وأكله متعددة ومعروفة بالمغرب والأندلس[17].

وبحكم تكرار الآفات السماوية كان الإنسان المغربي واعيا من خلال تجربته الطويلة بما يترتب عنها من المجاعات والأوبئة، وعلى علم بمعدل تكرارها الزمني، وبالمناطق الجغرافية المتضررة، وكان البعض

---

12 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس وإفريقيا والمغرب، ج 1، إلى الجزء 3، من تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنصال، بيروت، لبنان، 1967، الجزء الرابع، من تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 3 سنة 1983، القسم الثالث الخاص بالدولة الموحدية، من تحقيق إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء.ط1 سنة 1985،ج1 ص.254. ابن أبي زرع الفاسي علي بن عبد الله : الأنيس المطرب بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1973، ص.114.

13 ابن عذاري، البيان المغرب، م.س. قسم الموحدين، ص. 267.

14 نفسه، ص. 351

15 انظر المقارنة التي قام بها الأستاذ محي الدين محمد في أطروحته : التطور البيئي بمنطقة عبدة -دكالة، من الرباعي الحديث إلى الحالي، مرقونة بكلية الآداب بنمسيك، ص. 1132-117 بالاعتماد على الدراسات الرائدة ل Stockton,C. W. ولاحظ أن المصادر أغفلت ذكر عدة سنوات عرفت جفافا قويا مثل جفاف سنوات 1064، 1115، 1151، 1215، 1294،1237 على سبيل المثال.

16 الشريف الإدريسي أبي عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط. عالم الكتاب، -بيروت، ط. 1، سنة 1989،ج3، ص. 228، 235، وانظر كذلك، محمد علي مكي، وثائق تاريخية عن عصر المرابطين لكتاب مرابطين مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد، مجلد 7-8، سنة 1959-1960، ص. 186-188.

17 ابن زرين التجيبي، فضالة الإخوان ص. 185.

واعيا كذلك بالأسباب البشرية لحدوثها. كما عمل على محاولة التغلب عليها. ويلاحظ ابن خلدون مثلا أن "ليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود، ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار (التخزين)"[18]. فأهم وسائل التغلب على الآثار السلبية للمناخ المتوسطي المتقلب أو التلطيف من حدة جفافه على الأقل هو التكيف معه بعدة طرق منها الترحال للبحث عن الماء والكلأ، ومنها عادة التخزين في السنوات السمان المعروفة منذ القديم للتغلب على السنوات العجاف كما ورد في قصة يوسف مع ملك مصر، وتشارك في هذه العادة جميع المكونات الاجتماعية : الحكام، والرعية من سكان المدن والبادية حيث تتخذ القبائل مخازن جماعية المسماة أكادير.

1- **الرعية والتخزين بالمدن** : اعتادت الرعية وخاصة سكان المدن على التخزين كسكان مدينة فاس، الذين اضطروا في منتصف القرن 5هـ لاتخاذ المطامير لخزن الحبوب ببيوتهم بسبب جور مغرواة[19]، وأكد ابن خلدون في القرن 8هـ أن"الغالب على أهلها الخزن، وكيف أنهم أفرطوا في نظر العواقب، حتى أن الرجل منهم يدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره"[20]، كما أن سكان سبتة رغم توفر مدينتهم على ميناء يمكنهم من جلب الحبوب، فإنهم اضطروا لإحداث المطامير لاختزان الطعام فيها عام مسبغة (637هـ) وهو عام مشهور عندهم[21]، كما اعتاد الأفراد على اتخاذ مخازن الحبوب بمدينة سجلماسة في القرن 6هـ[22]، غير أن ذلك لم يكن متاحا لجميع سكان المدن، وكان "جميع الصناع الذين لا تكفيهم وسائلهم لامتيار الحبوب يشترون القمح ويطحنونه"[23].

2- **الرعية والتخزين بالبادية** : أما القبائل في البادية، فكانت تتخذ قصبات جماعية للتخزين منها على سبيل المثال كرسيف وهي :

---

[18] ابن خلدون، المقدمة، م.س. ص. 538.
[19] ابن أبي زرع : الأنيس المطرب،م.س. ص. 114.
[20] ابن خلدون، المقدمة، م.س.ص149
[21] ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، ص.351 .
[22] التادلي، التشوف، م.س.، ص278
[23] الوزان الحسن، وصف إفريقيا، م.س. ج1، ص. 184.

"قصبة بني مرين تختزن فيها حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء"[24]. ومدينة ماغوس حاضرة تامسنا رغم ما حل بها إلا أن قصرها "على الاختزان أمين ولحفظ الحبوب ضمين ما لم تعث شمال الفساد ويمين"[25]، كما أن مدينة تكيت بتامسنا في بداية القرن10 هـ "لم تعد سوى قرية يخزن بها الأعراب حبوبهم ويكلون حراستها إلى السكان"[26]، وعندما خربت مدينة الجمعة في الفترة نفسها بأزغار لم يبق بها "سوى مطامير يخزن فيها الأعراب المجاورون حبوبهم"[27]. لكن المخازن الآمنة نسبيا هي مخازن القبائل الجبلية، وذكر الإدريسي أن بجبال درن وحدها أزيد من 70 حصنا[28] وهذا ما يفسر كون الموحدين في حركة عبد المومن الطويلة 534-541هـ يمشون "في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة"[29]على عكس جيوش تاشفين بن على في السهل التي عانت من الشدة (غلاء الأسعار).

غير أن الفئة الاجتماعية التي كانت تخزن كميات كبيرة هي فئة الحكام، ويلاحظ أن "الأمراء ومن في معناهم من أهل المدن يهيئون الأسراب والمطامير لخزن أقواتهم"[30] ولولا التخزين لرخصت أسعار الحبوب في سنوات الرخاء[31]. ويمكن إعطاء أمثلة كثيرة على تخزين الحكام منها خزن ابن يدير الثائر ببلاد السوس زرع هذا السهل سنة 656هـ في حصن تيزغت[32]، أثناء الخلط لحصار مراكش أخرج المحتكرون الحنطة و"كان

[24] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م.س. ، ص. 1/272-273.

[25] ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء الثالث، تحقيق السعدية فاغية، دار الثقافة 1988م، ص. 89

[26] الوزان الحسن، وصف إفريقيا، م.س. ج 1، ص. 158.

[27] نفسه، ج 1، ص. 233.

[28] الإدريسي، نزهة المشتاق، م.س.، ص. 229.

[29] ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.ص16، مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار و عبد القادر زمامة، ط دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص. 130.

[30] ابن خلدون، المقدمة، م.س. ، ص. 725.

[31] نفسه، ص. 646 .

[32] ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، قسم الموحدين، ص. 455.

عندهم منها ما تتمشى به أحوال الناس مدة طويلة، لكن حب النفس منعهم من إخراجه والتمسك به"[33]. ويأتي في مقدمة الحاكم البيت الحاكم المسمى بالمخزن.

3- **المخزن والتخزين** : يتوفر المخزن على الوسائل والإمكانيات المادية لتخزين كميات كبيرة جدا في وقت من عمر الدولة لأنه يحتكر زراعة ثلثي الأراضي الفلاحية حسبما يستنتج من التكسير الذي قام به عبد المومن سنة 555هـ[34]. ومن التخزين جاءت كلمة المخزن التي عوضت مصطلح بيت المال وأصبحت تعني السلطة السياسية، مما يدل على العلاقة القوية بين الاثنين : السلطة والتخزين. وقد اعتادت الدولة أن تختزن الحبوب وغلاتها الفلاحية في ثلاثة أماكن : الأهراء بقصبات المدن الرئيسية، أو ببعض الحصون الاستراتيجية يشرف عليها مسؤول يعرف ب "خازن الطعام" أو صاحب الطعام عند الموحدين[35]، وأهم هذه المخازن مخزن "دار الملك" بمراكش، الذي كان يسمى ـ حسب الوزان ـ قصر النصر، والذي توجد بجانبه إسطبلات عظيمة وهريان من طبقتين يسع كل منها من الحبوب 30.000 روجي، أي حوالي 1.020.000 كلغ (20400 في المجموع قنطار)، وأسفلهما كان يخزن العلف[36]، وتشكل مدينة غرناطة المثال على حرص المخزن الموحدي على التخزين في أهراء قصبات المدن الرئيسية، إذ أمر عبد المومن "فملأ مخازنها في القصبة بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب...وأوصل أمره ذلك إليها من العدوة في المراكب في البحر... واتصل إخزان المخازن المذكورة من جميع الأقوات فيها من سبعة وخمسين إلى عام ثلاثة وستين وخمس مائة حتى فني وقسم على الموحدين في مواساتهم"[37]. وتفتح هذه المخازن الضخمة أثناء المجاعات الشديدة وتباع حبوبها ويتصدق بجزء منها كما فعل الناصر حين أمر "بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة

[33] نفسه، ص. 321.
[34] انظر عملنا عن ملكية الأرض وملابسات التكسير الذي قام به عهد عبد المومن.
[35] ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.قسم الموحدين، ص. 137.
[36] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م.س.، ص. 105، المنصوري عثمان، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط2001، ص. 207-211.
[37] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة...م.س.، ص. 137، وكذلك مخزن حصن بنيول، نفسه، ص. 422.

وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملة فقد أصدق منها الكثير"[38].

ثانيا، تخزينها في المرس : وهو مجموعة من المطامير بمكان فلاحي مهم، ولعل هذا سبب تسميتها بالمرس[39]. وميزة مطامير الأمراس أنها تحفظ الحبوب عشرات السنوات، خاصة إذا نحت في مرتفعات ذات الصخور الكلسية، ويمكن أن تتروا ح مدة حفظها بين 60-70 سنة كما هو الشأن بالنسبة لمدينة سبتة الشهيرة بجودة مطاميرها "أمينة على الاختزان"[40]، مثلها في ذلك مثل طليطلة[41] وقد تصل المدة إلى 100 سنة كما في مائة بئر بدكالة حسب الوزان[42] مما يعرضها للفساد وهو ما أثارته الفتاوى الفقهية في مسألة حبوب المطامير[43]. وهي ثلاثة أنواع : مطامير الدور للخواص، مطامير بالفنادق والمحلات التجارية للتجار ومطامير الحكام، إذ كانت توجد خارج فاس 150 مطمورة ضخمة يسع أقلها 1000 روجي والتي أصبحت مهجورة مع مطلع القرن 10هـ[44] زيادة على الأهراء التي يتخذونها بالقصبات وقد بلغ عددها بسبتة 40 ألف مطمورة. أما مخازن الحبوب فقد كانت تتراوح سعتها ما بين 2000 و5000م[45].

ثالثا، تخزينها على طول الطرق الأساسية لمرور الحركات لتتزود منها الجيوش، كما فعل عبد المومن حين كتب سنة 550هـ إلى عماله قبل ثلاث سنوات من حركته لبلاد إفريقية "يأمرهم بحفظ جميع ما يتحل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه...وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين

---

38 ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، ص. 267

39 المرس في الأمازيغية هي الموقع الاستراتيجي، أو موضع النزول.

40 بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976م، ص146.

41 محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط. طIII، 1996، ص. 42-43

42 الوزان، وصف إفريقيا، م.س.، ج1، ص. 121.

43 الونشريسي أحمد، المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ط.الرباط، 1981ج 7، ص. 5، 89/18، 262/7-452، 330.

44 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م.س.، ص. 215، وهي المذكورة مرتين باسم مطمر الزرع قرب جنة المصارة، جذوة، ص. 34، وسماها كذلك المرس، ص.51.

45 Alain, Reconnaissance archéologiques,. P. 450-455.

ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها وصارت كأنها تلال"[46]. وظهر مرة أخرى عند استعدادات عبد المومن لغزو الأندلس سنة 557هـ إذ "أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكرة ما عاينته مكدسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمس مائة، حتى فني في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان فسادا له"[47]. لذا كان أفراد الجيش يحسون كأنهم في دورهم أو أحسن نظرا لتوفر المرافق[48]. لكن بعد 40 سنة من هذا التاريخ سيعاني الجيش في حركاته الأمرين، إذ لم يعد المخزن الموحدي قادرا على توفير الأقوات والأعلاف على طريق الحركات وظهر ذلك جليا في سنة 607هـ في عهد الناصر عندما وصلت حركته إلى قصر كتامة، فكانت "الأسعار قائمة النفاق، والبلاد قد تضيقت من في كل ما يؤول إلى الارتفاق،... لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في أسفارهم القاصيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه زمن الفتن المبيرات (المهلكة للناس)، والناصر يتربص بانتقال المراحل لثقل الحالات ويغضي عما سمع من الهفوات إلى أن استقبل المنازل التي كانت تستمد منها الرفاق وتحتقب منها الحقائب ويدخر منها الأزودة المقيم والذاهب فألفاها وقد جف معينها وخف بتوالي العدوان قطينها، ولم يبق منها لمخازن السلطان الوافرة أثر ولا يتضح لخازنها دليل ولا نظر واستولى على عموم المحلة الإقتار، وبلغ نتهم مبلغ الهزائم المبيرة الأضرار..."[49]. وهذا شبيه بما حدث من قبل كذلك للجيش المرابطي أثناء حروب تاشفين مع عبد المومن (534-541هـ)، الذي بلغ ثمن الشعير في محلته "ثلاثة دنانير للسطل وبلغ عند ناشفين دينار للرطل من شدة تلك

---

[46] الناصري أبو العباس أحمد السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. حققه و علق عليه جعفر الناصري و محمد الناصري. دار الكتاب الدار البيضاء ج2 ص 131

[47] ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة...م.س، ص 148

[48] مجهول : الحلل الموشية...م.س.ص 153، وقد سبق لنا أن تطرقنا لهذه النقطة في مقال بعنوان : الحركات الموحدية، سينشر قريبا.

[49] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص25. وقد حمل محمد الناصر مسؤولية هذا الفراغ غير العادي لعمال الموحدين بالغرب ومن أجل ذلك نكبهم.

السنة ثم فتح الله بالغياث والخيرات"[50]."فهلك كثير من عساكر تاشفين بردا وجوعا لانقطاع الطرق"[51] ولسوء تزويد جيشه. وعلى العموم كانت مدخرات المخزن تقل تدريجيا مع ضعف الدولة بسبب الفتن والاضطرابات مما كان يجعل المجاعات والأوبئة تنال من العصبية الحاكمة التي كانت في منأى عنها من قبل.

ب- تفاقم آثار المجاعات والأوبئة خلال فترات الفتن والحروب :

تكون إجراءات التخزين هذه فعالة في حالة الاستقرار السياسي النسبي، وتقل فعاليتها في حالة الاضطرابات خاصة المصاحبة لقيام دولة جديدة إذ تساهم الحروب في تفاقم المجاعات والأوبئة إن لم تساهم في خلقها، مثلما حدث في بجاية 581 هـ أثناء حروب ثورة ابن غانية بها سنة 580هـ[52] "فلما وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها وخف قطينها وعمارها... وألم بالرعية الحيف، وتقسمهم الجلاء والسيف، اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار واحتمى من ركن منهم إلى أحياء العرب بالجوار، فأقفرت من بجاية بسائطها وقلت مادتها وغلت أسعارها... والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان وانحصر المسلوبون والمغنومون إلى البلد في أمم لا يحصى عديدهم ولا ينادي من الإقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا"[53]. ومثلما حدث خلال المجاعات الناتجة عن حصار المدن كالمجاعات التي تعرضت لها مراكش مرتين : سنة

---

50 البيدق أبو بكر الصنهاجي : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت و ابتداء دولة الموحدين. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. ط.دار المنصور للطباعة و النشر -الرباط 1971م ص 52، انظر كذلك النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق أبو ضيف مصطفى. و نشره تحت عنوان : تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ط دار النشر المغربية د.ت. و القسم الخاص منه بالدولة الفاطمية ببلاد المغرب، نشره مستقلا. مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1988 ص 405

51 ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ج 4ص 100

52 نفسه، ق.الموحدين م.س ص178

53 ابن عذاري : البيان المغرب م.س ص 181. وهكذا كانت الرعية تنحشر بالمدن أثناء مدة تلك المجاعات، التادلي : التشوف...م.س ص 429 ذكر أن أحد المتصوفة اكترى فندقا من العامل ببجاية ليسكن فيه المساكين في أحد أعوام المجاعة، أو ما ذكره أبو بكر ابن عربي عن مجاعة 536هـ بأغمات، وما قاسته العامة من محن وأهوال بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي...م.س.ص201

541هـ، أثناء حصار الموحدين لها[54]، وسنة 632هـ أثناء حصارها من طرف قبيلة الخلط[55]. وكلما تزايدت الحروب والفتن إلا وترتفع وتيرة معدلات تكرار المجاعات والأوبئة وتتضاعف حدة الآثار المترتبة عنها، كما يظهر من الأمثلة التالية :

- مجاعة 534-543هـ : تزامنت هذه المجاعة مع الفترة الانتقالية من المرابطين والموحدين، وقد ظهرت بوادرها مع قيام الدولة الموحدية سنة 518هـ، لكن آثارها لم تظهر إلا بعد 10 سنوات واستهلاك أو إتلاف مخزون الحبوب مما سمح لجفاف سنة 534هـ أن يخلق مجاعة[56]، وقد أثرت هذه المجاعة على المدن القريبة من أماكن الصراع كمدينة أغمات أيلان سنة 535هـ حسب شهادة القاضي ابن العربي[57]، وعلى مدينة أزمور[58]. ثم انتقلت بعد ذلك إلى المناطق التي وصلتها الحروب فظهرت سنة 540 في طنجة التي عرفت "أسوأ حال من شدة الضيق وغلاء السعر"[59] وعرفت قرطبة سنة 540هـ غلاءا مفرطا[60]، وكان ثمن ربع القمح (أي حوالي 12 كلغ ونصف) بمراكش سنة 534هـ مثقال حشمي[61]، واستمر تأثيرها في جميع بلاد المغرب من 37 إلى سنة 543هـ[62]. وكان من الطبيعي أن يؤثر ذلك على تموين الجيش المرابطي خلال سنوات 536-541هـ في حين لم يتأثر الجيش الموحدي بها الذي "كان ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء"[63]، فهذه المجاعة لم تكن نتيجة للظروف الطبيعية وحدها بقدر ما كانت نتيجة للحروب بين

[54] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص، مجهول : الحلل الموشية...م.س ص

[55] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. 325 وقد ذكر ابن عذاري ما كان يؤكل في هذه المجاعة من النبات. الأمثلة كثيرة جدا عن الحصار الاقتصادي للمدن في هذه الفترة.

[56] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص 16، " واشتعلت نار الفتن والغلاء بالمغرب"ابن خلدون :كتاب العبر...م.س. ج 6ص 103

[57] بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي...م.س.ص201

[58] التادلي : التشوف ...م.س،ص 183

[59] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص25-26

[60] الضبي : بغية الملتمس ص 168

[61] ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص 16

[62] ابن الأثير عز الدين علي بن محمد : الكامل في التاريخ. ط دار صادر ت بيروت لبنان 1997 ج 9 ص 18 أبو الفداء گ مختصر أخبار البشر ج 2 ص30" كان الغلاء العام من خرا سان إلى العراق إلى الشام إلى بلاد المغرب"

[63] ابن خلدون : كتاب العبر ...م.س. ج 6ص 230 ابن عذاري : البيان المغرب...م.س. ص 16

المرابطين والموحدين وقد ترتب عنها هجرة السكان بكثافة إلى الأندلس، ثم ارتفاع الأسعار "وغلت الأسعار وعم الجور وكثر المحن بالعدوتين وانقطع السفر والأسباب وكثر النهب وانقطعت الطرق"[64].

وعند عودة الأمن مع الدولة الجديدة لم يستطع الجفاف أن يؤثر على المغرب خلال مدة 60 سنة بسبب فعالية التخزين فقل عدد المجاعات والأوبئة بين سنة 541-610هـ وتكاد تنحصر في مجاعات وأوبئة محلية مثل الوباء المحلي الذي أصاب مراكش وأحوازها 571هـ[65]، أو المجاعة الناتجة عن اضطرابات سياسية كمجاعة بجاية بسبب ثورة بني غانية السابقة الذكر ودخولهم المدينة 582هـ.

لكن بعد ضعف الدولة الموحدية ستتوالى المجاعات والأوبئة دون انقطاع بسبب حروب الموحدين مع الثوار خاصة بين الموحدين والمرينيين، فنتج عن ذلك مجاعة متواصلة دامت نصف قرن من 610-658هـ بشمال المغرب، نعتتها بعض المصادر بالمجاعة الكبرى مثل ابن القاضي الذي وصفها ب "المجاعة العظمى التي خلا منها المغرب وتوالت به الفتن من سنة تسع عشر إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة"[66]، ولاحظ ابن أبي زرع أنه في أيام عثمان بن عبد الحق (614-638هـ) "كانت المجاعة والوباء الشديد والخوف والفتن فخلا أكثر بلاد المغرب"[67]. وتؤكد عدة مصادر ذلك "كانت أيام الرشيد تسع سنين ونحو نصف سنة معظمها في هرج وغلاء مفرط وفتن مظلمة وأهوال لا قبل لأحد بها إلا بعض سنين أواخر العشر التي توفي بها"[68]. وساهم في خلق هذه المجاعة الكبرى ظهور الجفاف 5 مرات مما ترتب عنه 5 مجاعات خلال

[64] ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف الأنصاري، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ، 1972، ص 31.

[65] ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، ص 136-137، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب،م.س.،ص. 267.

[66] ابن القاضي أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ، 1973، ص. 34.

[67] ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 37.

[68] ابن عبد الملك محمد المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، س1، تحقيق محمد بن شريفة، س 8، ص. 242.

ظرف 35 سنة أي بمعدل قحط كل 7 سنوات[69]. فكيف حدثت هذه المجاعة الكبرى ؟

بدأت بوادرها بفراغ مخازن الدولة سنة 607هـ خاصة الموجودة منها على طريق الحركات للأندلس كما سبق الذكر، وستتوالى المجاعات والأوبئة على المغرب بعد هزيمة العقاب 609هـ، وكانت وتيرتها ترتفع تباعا لتوالي الاضطرابات السياسية، أولها مجاعة 610هـ، ثم مجاعة دامت من 614-616هـ بعد سنة 615هـ التي كانت سنة فوق المتوسط "سمتها قبائل المصامدة سنة وقليل"، وبلغت أوجها سنة 616هـ ووصلت الأسعار حدا لا يطاق، ولما "علم الناصر ما حل بالمسلمين في بلاده من المجاهدة في غلاء السعر والشدة أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملة فقد صدق منها الكثير"[70]، وكلما ازدادت الاضطرابات السياسية ازدادت حدة المجاعة لتصل إلى أوجها سنة 635هـ إذ "اشتد الغلاء والوباء بالعدوة فأكل الناس بعضهم بعضا، وكان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"[71] ووصل تأثيرها إلى دار الملك بمراكش التي حدث بها وباء صيف سنة 635هـ بسبب الجدب الذي كان تقدم أعواما ومات فيها 10/9 من أفراد وفود أهل إشبيلية وسبتة وغمارة[72]، بل أثرت سنة 637هـ على مدينة سبتة التي قلما تؤثر عليها المجاعات نظرا لوضعيتها الخاصة كميناء[73]. ومن مظاهر شدتها في الريف خلال ثلاث سنوات أن بعض الناس كانوا "يسلمون أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام"[74]، كما أثرت على التعليم، وقطع أحد الصلحاء الإقراء بسببها بمدينة سبتة[75].

---

69 انظر البزاز، البزاز محمد الأمين : "حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد18، ص. 86.

70 ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، ص. 267، نفس الشيء حدث في العهد المريني سنة 724هـ، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب،م.س.، ص.401.

71 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م.س.، ص. 276- 277.

72 ابن عذاري، البيان المغرب، م.س.، ص. 345.

73 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م.س.، ص. 67.

74 البادسي عبد الحق بن إسماعيل، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982م، ص. 61-62، مدة أسر إبراهيم بن عيسى، حدث نفش الشيء في دكالة في القرن 9هـ، الوزان الحسن ، وصف إفريقيا، م.س.، ص. 51.

75 نفسه، ص. 68.

ومما زاد من حدتها بالريف أنها تزامنت مع تغلب قبائل الرحال كبني وطاس على نكور، والعرب على الريف وخاصة ناحية باديس، إلى درجة أن بعض هؤلاء المتغلبين لم يسلموا بدورهم من عواقبها إذ لم يجدوا الطعام عدة أيام بالريف إلا عند أحد الأولياء[76].

ولم تبدأ الأمور في التحسن بشمال المغرب وخاصة بفاس وأحوازها إلا ابتداء من سنة 646هـ عند دخول المرينيين لها واستتباب الأمن نسبيا في ضواحيها[77]، لكن الرخاء العظيم لم يظهر بها إلا سنة 658هـ ودام مدة 15سنة إلى سنة 672هـ[78]حين انخفضت خلال هذه المدة أسعار المواد الغذائية الأساسية بشكل كبير على الأقل بفاس ونواحيها، ووصل سعر القمح 6 أو 7 دراهم للصفحة[79] أي درهم لعشرة أمداد. واستمر هذا الوضع رغم ظهور بعض المجاعات التي كان تأثيرها محدودا إلى وفاة أبي عنان في 760هـ عندما اضطربت الأوضاع السياسية من جديد.

يعلل ابن خلدون حدوث المجاعات والأوبئة في المراحل الانتقالية هذه بأن "المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أخر الدول. والسبب فيه : أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدول من العدوان في الأموال والجبايات والفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع غالبا"[80] وتؤيد الأحداث والوقائع التاريخية التالية هذا التعليل الذي قدمه ابن خلدون. فقد كانت الفتن والاضطرابات الناتجة عن حروب الدولة القائمة مع الثوار، تتسبب في أربعة أمور :

1) فرار الرعية عن الأراضي الفلاحية سواء كانوا مالكين أو مجرد معمرين لها. فكان السكان وخاصة الفلاحين يفرون من السهول والهضاب المستغلة ويلجأون للتحصن بالمعاقل الجبلية والصحاري أو غيرهما،والأمثلة على فرارهم عديدة، مثل هروب سكان سهل سوس إلى الأطراف حسب رسالة رسمية أوردها ابن القطان[81]، وهروب سكان بلاد

---

76 نفسه، ص. 75.
77 ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية، م.س.، ص. 72-73.
78 نفسه، ص. 89.
79 نفسه، ص. 94-95.
80 ابن خلدون، المقدمة، م.س.، ص. 537-539.
81 نفسه، ص. 210، كتاب الدولة المومنية، رسائل موحدية جديدة، م.س.، ص. 50-. 51.

الهبط : "فقصر عبد الكريم وليس فيه إلا القليل من الناس في خيمات وحانوت واحد كان سوقهم، والأسود تزأر حواليه، والأرض موحشة قفرة، أخلاها تهارج الفتن"[82]. وحسب الإدريسي، فمدينة بني تاودا بالقرب من فاس التي كانت مزدهرة فلاحيا خلال العهد المرابطي كانت "أول مدينة من مدن الغرب التي حل بها الفساد واستأصلها المصامدة... ولم يبق من هذه المدينة المنسوبة لبني تاودا إلا مكانها"، ولم يعد إليها عند خمود نار الفتنة إلا نحو 100 رجل حملهم على العودة إليها ما تتميز أرضها من خصوبة كبرى والمردودية الفلاحية المرتفعة بها[83] بل يضطر البعض منهم إلى الهجرة بعيدا للمناطق التي ما تزال آمنة كما حدث في سنة 535هـ حين "انجلى أهل المغرب انجلاء عظيما إلى الأندلس"[84]، قبل أن تصاب بدورها، وفي سنة 541 هـ كانت الطريق بالأندلس بين مدينة شريس ومدينة طريف والنواحي المجاورة لهما "كلها مقفرة لا سكنى بها ولا عمارة لقرب الفتنة المهلكة لأهل الأندلس"[85]. وكان من أحد أسباب نجاح فتوحات عبد المومن بن علي في حركته الطويلة (534-541هـ) أن الجبال التي احتلها كانت توفر له هذه الحشود البشرية على عكس تاشفين الذي "ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من يواصله، ولا من يستعين به ويداخله"[86]. في حين "كان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة"[87].

وتكررت ظاهرة فرار السكان والفلاحين عن الأوطية و إخلاء عمارة الأراضي الفلاحية مع تكرار الاضطرابات خلال المرحلة الانتقالية بين الموحدين والمرينيين في النصف الأول من القرن 7هـ. فعندما دخل المرينيون الشمال المغربي سنة 610هـ "شنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه، إلا أن كل من أذعن لهم بالطاعة

---

82 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، م.س.، ص. 43-.44.

83 الإدريسي أبي عبد الله محمد، نزهة المشتاق، م.س.، ص. 249. وعن تازكورت، ابن القطان، نظم الجمان، م.س.، ص.195، ومادة تازكورت في معلمة المغرب، م.س.، ص. 190.

84 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج4، ص. 98.

85) نفسه، قسم الموحدين، ص. 43.

86) مجهول، الحلل الموشية، م.س.، ص. 130.

87) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين، م.س، ص. 16، مجهول، الحلل الموشية، م.س.، ص. 130.

سالموه، ومن نابذهم قاتلوه وقصموه، ففر الناس أمامهم يمينا وشمالا، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا، وخلت المجاشر وقلت العمارات..."[88]، ولم يعودوا إليها إلا بعد أن استقرت الأوضاع ابتداء من عهد الأمير أبي بكر بن عبد الحق سنة 546هـ الذي "أمر القبائل بسكن الأوطية، وعمارة القرى والمجاشر الخالية، والاستكثار من الحرث..."[89]. وهذا يبين أن عملية إعادة تعمير المناطق الفلاحية المهمة بشركاء قدماء أو جدد من الرعية مرتبطة بسيطرة متغلب جديد على الأرض، وتوزيع خراج هذه المناطق على عصبيته القبلية. ويترتب عن هجرة الرعية للأراضي الفلاحية تناقص الانتاج الفلاحي واختلال نظام التخزين وفساد الحبوب فيظهر آنذاك تأثير الجفاف على السكان في شكل المجاعات والأوبئة.

2) ويترتب عنها أيضا خراب العمران والمنشآت الفلاحية كما حدث بين سنوات 610 -646هـ، وخلال ذلك توالى الخراب على منشآت مدينة فاس مدة 20 سنة من سنة 618 إلى 637هـ بسبب المجاعة والفتنة خاصة الحروب في عهد العادل والمأمون[90]، ويتجلى ذلك في قضية ثريا جامع القرويين الضخمة التي صنعت في عهد الناصر الموحدي التي تستهلك قنطار وسبع قلل من الزيت كل ليلة وتستهلك قناديل الجامع ثلاثة قناطر ونصف القنطار، وكانت تسرج طيلة شهر رمضان إلى سنة 618هـ حين "جاءت المجاعة والفتن، فقلت الجبايات بالمدينة، ومات أكثر الناس جوعا، وقل الإنفاق على الجامع وعدم الزيت" واقتصر إشعالها على ليلة القدر وحدها مدة قصيرة إلى أيام القاضي الحيوني وتعطل نهائيا قرابة 60 سنة ليستأنف إسراجها سنة 687هـ في ليلة القدر فقط واستمر الحال على ذلك إلى سنة 724هـ على الأقل. وتكررت ظاهرة الخراب أثناء ما سماه الوزان بحروب السعيد وهو السعيد بالله في النصف الثاني من القرن 8هـ، وهو الخراب الذي نال العديد من القرى والمدن بإقليم فاس ذكر منها 8 مدن[91]، كما طال مراكش حسب ابن بطوطة.

---

[88] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م.س.، ص. 288-289، والذخيرة السنية، م.س.، ص. 36.
[89] ابن أبي زرع، الذخيرة، م،.س.، ص. 73.
[90] ابن أبي زرع :الأنيس المطرب، م.س.، ص. 49.
[91] الوزان الحسن، وصف إفريقيا، م.س.، ج1، ص. 166، 169، 171 -172، 225، 233.

3) يترتب عنها كذلك انقطاع الطرق وصعوبة تأمين تزويد المناطق المتضررة بالحبوب، منها اضطرار وفد إشبيلية الذي قدم البيعة لعبد المومن بمراكش لأخذ "على طريق الجبل بسبب فتنة القبائل" في جمادى الآخرة سنة 542هـ[92] ولم يستطع المرور بالسهل. ومنها اعتراض وسلب بني مرين للقافلة التي كان برفقتها أبو المطرف بن عميرة حين توجهه من مكناسة إلى سبتة في الأربعينات من القرن 7 هـ. وكان "المنهوب له من ماله يعدل أربعة آلاف دينار عشرية وكان ورقا وعينا وحليا"[93]. كما أن نهر سبو الذي كان يستغل في الملاحة النهرية حتى مدينة فاس حيث كانت تستعمل السفن والقوارب الصغيرة[94]، وتدخل السفن الكبيرة مسافة كبيرة عند سافلة النهر، توقف استغلاله في القرن 16م عصر الحسن الوزان ومارمول اللذان لاحظا أنه "يمكن السفر على متنه إلى فاس لو كان الناس عقلاء، لأن ذلك سيجعلهم لا يشترون القمح المحمول إليهم برا من أزغار بضعف ثمنه"[95].

4) وعند انقطاع الطرق تنعدم المرافق فترتفع أسعار المواد الغذائية بشكل صاروخي يتضرر منها دوي الدخل المحدود، فيحدث الوباء، الذي لا يكون "إلا بإثر الغلاء فهو لازم من لوازمه، كما أن الغلاء لحدوثه أسباب : إما احتباس المطر في البلاد المحتاجة إليه، وإما لظهور الفتنة والحروب لسبب خروج الخوارج عن الملوك، فإذا دامت الفتنة وقع الفساد في الحواضر والبوادي وفسدت حبوبها المختزنة وانقطعت الطرق وعدمت المرافق لأجل ذلك"[96].

خاتمة :

يتبين مما سبق أن المجاعات لا تهبط من السماء بغتة، بل تنشأ على الأرض من خلال تفاعل عوامل حاسمة ذات طبيعية سوسيو-سياسية مع عوامل طبيعية كالمناخ، وكان دور الإنسان حاسما جدا في تفاقم حدتها

[92] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ق. الموحدين، ص. 34.
[93] ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، م.س.، ج1، ص. 179.
[94] الجزنائي علي، جني زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص. 37.
[95] الوزان الحسن، وصف إفريقيا، م.س.، ج2، ص. 249، مارمول، إفريقيا، م.س.، ج1، ص. 36.
[96] الخطبة الملكية في الأمراض الوبائية، مخطوط خ،ح، رقم9605، ص. 1.

بالمقارنة مع تأثير الآفات السماوية. وإذا كان الإنسان المغربي قد استطاع أن يخفف من آثار الآفات السماوية ويلطف من حدتها بطرق مختلفة كالتخزين أو اتخاذ جزء كبير من سكانه للترحال كنمط للعيش، فإنه قد فشل في الاهتداء إلى حل سياسي لمشاكله الأرضية الناتجة عن التفاوت الاجتماعي الصارخ بين الحكام والرعية (المحكومين) مما تسبب في الكثير من التوترات والاضطرابات السياسية، لهذا كانت الأزمات السياسية هي التي تخلق أزمات الخبز وليس العكس كما نظن وكما يحدث اليوم. أما الاضطرابات السياسية فهي إفراز طبيعي للنظام الاجتماعي والسياسي المعتمد على الأسس والقيم القبلية المقتبسة من المشرق، وكانت الحلول المقترحة للتلطيف من قسوة الظروف الطبيعية والبشرية معا هي ظهور ثقافة الصدقة وترسيخها، سواء من طرف الأولياء أو الدولة، إذ كانت الصدقة تشكل عنصرا هاما من سلوك ومذهب أغلب المتصوفة ولكن الذي نظرها وجعل منها مذهبا قائم الذات تلخصه مقولة "الوجود ينفعل بالجود"[97]، وهو ما قال به أبو العباس السبتي في القرن 6 هـ.

[97] التادلي، التشوف، م.س.، ص. 454.